

جهود علماء إندونيسيا في الإصلاح العقدي

د. أحمد زين النجاح - إندونيسيا

المقدمة

شهدت إندونيسيا منذ أواخر القرن الثالث عشر الهجري وبدايات القرن الرابع عشر حركةً علميةً إصلاحيةً واسعةً، قادها عدد من العلماء والدعاة الذين أدركوا أن تجديد نهضة المسلمين لا يتحقق إلا بالرجوع إلى القرآن والسنة، وتصحيح العقيدة، وإحياء منهج التعليم الشرعي. وقد جاءت هذه الحركة في مرحلة شهدت انتشار عدد من الممارسات التي اختلط فيها الدين ببعض العادات والموروثات المحلية، فكان من واجب العلماء بيان الحق، وإرشاد الناس بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولم يكن الإصلاح العقدي في إندونيسيا قائمًا على الجدل أو الخصومة، بل اتخذ وسائل متعددة، شملت تأسيس المدارس، وإنشاء الجمعيات العلمية، وتأليف الكتب، وإلقاء الدروس، وتربية الأجيال على فهم الإسلام من مصادره الصحيحة. ولهذا لم يكن أثر هؤلاء العلماء مقصورًا على تصحيح بعض المفاهيم، بل امتد إلى بناء حركة علمية أسهمت في تشكيل ملامح النهضة الإسلامية الحديثة في البلاد.

ولا تهدف هذه المقالة إلى استيعاب جهود جميع علماء إندونيسيا، وإنما تقف عند نماذج من أبرز المصلحين الذين كان لهم أثر ظاهر في ترسيخ عقيدة التوحيد، ومحاربة الخرافة، وإحياء السنة، مع اختلاف أساليبهم وميادين عملهم. ويكشف هذا التنوع أن الإصلاح العقدي لم يكن جهد فرد واحد، وإنما مشروعاً علمياً متكاملاً، اشترك في بنائه علماء جمعوا بين العلم، والدعوة، والتربية، والإصلاح الاجتماعي.

الشيخ أحمد السوركتي:

تصحيح الغلو في الصالحين

يُعدُّ الشيخ أحمد السوركتي (ت ١٣٦٣هـ/١٩٤٣م) المؤسس الأبرز لمدرسة الإصلاح العقدي في إندونيسيا خلال القرن الرابع عشر الهجري. وقد قام مشروعه الإصلاحي على مبدأ واضح، وهو أن حماية التوحيد لا تتحقق بمجرد التحذير من الانحرافات، وإنما بإعادة بناء المفاهيم على ضوء الكتاب والسنة، وتربية المسلمين على فهم الدين بعيدًا عن التقليد والخرافة.

ومن أبرز القضايا التي أولى لها عناية خاصة ما شاع في بعض البيئات من الغلو في الصالحين، حتى أدى ذلك عند بعض الناس إلى التعلق بالأولياء، والتبرك بقبورهم، أو

اعتقاد قدرتهم على جلب النفع، ودفع الضر، وقضاء الحاجات بعد وفاتهم. فكان يقرر أن محبة الصالحين إنما تكون بالاقتداء بهم في الإيمان والعمل، لا بجعلهم وسائط بين العباد وربهم، كما كان يؤكد أن زيارة القبور مشروعة للاعتبار والدعاء للأموات، لا لاتخاذها مواطن للبركة أو الاستغاثة أو طلب الحاجات.

ولم يقف إصلاحه عند حدود البيان العلمي، بل سعى إلى ترسيخ هذه المفاهيم من خلال التعليم المنظم، فأسس جمعية الإرشاد الإسلامية، وجعل من نشر العقيدة الصحيحة، وتعليم اللغة العربية، وإعداد الدعاة، أساسًا لمشروعه الإصلاحي. وكان يرى أن إزالة الانحرافات لا تكون بكثرة الجدل، وإنما ببناء أجيال تتلقى الإسلام من مصادره الأصيلة، وتزن الأقوال والأعمال بميزان الوحي.

وهكذا جمع الشيخ أحمد السوركتي بين قوة التأصيل، وحكمة الدعوة، والعمل المؤسسي، فأسهم في تصحيح مفاهيم الغلو في الصالحين، وبيان الأحكام المتعلقة بزيارة القبور والتبرك والاستغاثة، وربط المسلمين بأصل التوحيد، حتى أصبح أحد أبرز رواد الإصلاح العقدي في إندونيسيا خلال العصر الحديث.

الشيخ أحمد دحلان:

إصلاح العبادات وتنقية التدين الشعبي

إذا كان الشيخ أحمد السوركتي قد ركز على تصحيح المفاهيم العقدية، فإن الشيخ أحمد دحلان (ت ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م) اتجه إلى إصلاح الممارسة الدينية في المجتمع، منطلقًا من أن العقيدة الصحيحة لا تؤتي ثمارها إلا إذا ظهرت آثارها في العبادة والسلوك.

وقد لاحظ الشيخ أن عددًا من العادات التي انتشرت بين المسلمين اختلطت بالعبادات حتى أصبحت تُمارس على أنها من الدين، مع أن كثيرًا منها لا يستند إلى دليل صحيح. ولذلك دعا إلى إعادة الناس إلى هدي القرآن والسنة، وربطهم بفهم النصوص الشرعية، حتى يميزوا بين السنة والعادة، وبين العبادة المشروعة والممارسة الموروثة.

وفي هذا السياق، أولى عناية خاصة بتصحيح ما ارتبط ببعض المواسم والاحتفالات الدينية من ممارسات أُضيفت إليها مع مرور الزمن، كما دعا إلى تصحيح ما شاع في بعض البيئات من المبالغة في تعظيم بعض القبور، أو ربط البركة بأماكن وأعمال لم يثبت لها فضل في الشريعة. وكان يعالج هذه القضايا بالتعليم والإقناع، لا بالمواجهة، معتقدًا أن إصلاح المجتمع يبدأ بتربية أفراده على فهم النصوص الشرعية، وتعظيم السنة، وإحياء روح الاتباع.

ولهذا جعل التعليم محور مشروعه الإصلاحي، فأسس الجمعية المحمدية، وأنشأ المدارس، وطوّر مناهجها، وربط بين العلوم الشرعية والعلوم الحديثة، إيمانًا منه بأن النهضة الإسلامية لا تقوم إلا على العلم الصحيح. ومن خلال هذا المشروع التربوي امتد أثره إلى مختلف أنحاء إندونيسيا، وأسهم في تصحيح كثير من الممارسات التي كانت تُتلقى بالتقليد، حتى غدا الإصلاح التعليمي أحد أهم وسائل الإصلاح العقدي في البلاد.

ويكشف منهج الشيخ أحمد دحلان أن إصلاح العقيدة لا ينفصل عن إصلاح العبادة، وأن بناء الإنسان علمًا وتربيةً هو الطريق الأمثل لترسيخ التوحيد، وإزالة ما علق بالتدين الشعبي من ممارسات لا أصل لها في الكتاب والسنة.

الأستاذ محمد ناصر:

ترسيخ التوحيد في الخطاب الدعوي

يمثل الأستاذ محمد ناصر (ت ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) مرحلة متقدمة في مسيرة الإصلاح العقدي في إندونيسيا، إذ نقل الدعوة إلى التوحيد من نطاق التعليم المحلي إلى مشروع دعوي شامل، يخاطب المجتمع بمختلف فئاته، ويجمع بين التأصيل الشرعي، والعمل المؤسسي، والوعي بمتغيرات العصر.

وانطلق ناصر من قناعة بأن الانحرافات التي ظهرت في بعض البيئات الإسلامية لا تعالج بالردود الجزئية، وإنما ببناء خطاب دعوي يعيد المسلمين إلى أصول الإسلام، ويغرس فيهم تعظيم الكتاب والسنة. ولذلك ركّز في محاضراته وكتاباته على بيان حقيقة التوحيد، وربط الناس بإخلاص العبادة لله تعالى، محذرًا من الغلو في الصالحين، أو التعلق بالأضرحة، أو صرف شيء من الدعاء والاستغاثة لغير الله، مع التأكيد على احترام العلماء، وبيان فضلهم، دون أن يفضي ذلك إلى تجاوز الحدود التي رسمها الشرع.

ولتحقيق هذا المقصد، أسس المجلس الأعلى الإندونيسي للدعوة الإسلامية، الذي جعله منبرًا لإعداد الدعاة، ونشر العلم الشرعي، وتعزيز الوعي العقدي في مختلف أنحاء البلاد. وقد أولى المجلس عناية كبيرة بتأهيل الدعاة علميًا وفكريًا، حتى يكونوا قادرين على معالجة ما انتشر من مفاهيم خاطئة بالحكمة والموعظة الحسنة، بعيدًا عن التشدد أو إثارة الخلافات.

وتبرز خصوصية مشروع محمد ناصر في أنه جعل الدعوة إلى التوحيد رسالة مجتمعية شاملة، فلم يقتصر على معالجة مظاهر الانحراف، بل عمل على إعداد دعاة يحملون

منهج الإصلاح، ويواصلون نشره في المجتمع. ومن هنا امتد أثره إلى أجيال متعاقبة من الدعاة، وأصبح أحد أبرز أعلام الإصلاح الدعوي في إندونيسيا خلال القرن الرابع عشر الهجري.

الأستاذ الدكتور حمكا:

إعادة التوازن بين التزكية وصحة العقيدة

يحتل الأستاذ الدكتور حمكا (ت١٤٠١هـ/١٩٨١م) مكانة متميزة بين رواد الإصلاح في إندونيسيا، لأنه جمع بين التفسير، والدعوة، والتربية، والأدب، واستطاع أن يقدم مفهومًا متوازنًا للتدين، يجمع بين صفاء العقيدة، وسلامة العبادة، وتزكية النفس.

وانطلق حمكا من أن حاجة المسلم إلى تزكية القلب لا تقل عن حاجته إلى صحة الاعتقاد، غير أنه كان يؤكد أن التزكية لا تكون صحيحة إلا إذا تأسست على التوحيد الخالص، واتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم. ولذلك انتقد ما ظهر في بعض البيئات من ممارسات نُسبت إلى التصوف، كالغلو في الأولياء، والتعلق بالأضرحة، واعتقاد البركة في الأشخاص أو الأماكن بغير دليل شرعي، مبينًا أن هذه المظاهر لا تمثل حقيقة الإحسان التي جاء بها الإسلام، وإنما هي انحرافات دخلت على بعض المنتسبين إلى التصوف عبر مراحل تاريخية مختلفة.

ويتجلى هذا المنهج بوضوح في كتابه (تصوف مودرن)، حيث دعا إلى تزكية النفس، ومحاسبتها، وتقوية الصلة بالله تعالى، مع التحذير من جعل التصوف طريقًا إلى العزلة، أو تعليق القلوب بغير الله، أو إشغال الناس بالمظاهر التي لا تزيدهم قربًا من ربهم. كما أكد في (تفسير الأزهر) أن حقيقة الولاية إنما تقوم على الإيمان والتقوى، وأن كرامة الأولياء لا ترفعهم فوق مرتبة العبودية، ولا تبيح صرف شيء من أنواع العبادة لهم.

ولم يكن حمكا يعالج هذه القضايا بلغة الصراع، وإنما بلغة التربية والإصلاح، فكان يخاطب العقل والقلب معًا، ويحرص على الجمع بين قوة الدليل، ورقّة الأسلوب، وإحياء المعاني الإيمانية في النفوس. ولهذا وجد خطابه قبولًا واسعًا بين مختلف شرائح المجتمع، وأسهم في تقريب كثير من الناس إلى المنهج الوسطي الذي يجمع بين صحة العقيدة، وسمو الأخلاق، وعمق الإيمان.

ومن هنا اكتمل جانب مهم من مسيرة الإصلاح العقدي في إندونيسيا؛ فبعد أن رسخ العلماء قبله أصول التوحيد، وأصلحوا التعليم، وبنوا المؤسسات الدعوية، جاء حمكا ليؤكد أن صفاء العقيدة لا ينفصل عن تزكية النفس، وأن الإحسان الذي دعا إليه الإسلام لا يتحقق بالخرافة والغلو، وإنما يتحقق بالإخلاص لله تعالى، واتّباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والسير على هدي العلماء الربانيين.

الخـــاتمـة

تكشف تجربة الإصلاح العقدي في إندونيسيا أن تجديد الحياة الإسلامية لم يكن ثمرة جهود فرد واحد، ولا نتيجة وسيلة واحدة، وإنما كان مشروعًا علميًا ودعويًا متكاملًا، شارك في بنائه علماء تنوعت ميادين عملهم، واجتمعوا على غاية واحدة، هي إعادة المسلمين إلى صفاء التوحيد، وربطهم بالكتاب والسنة.

وقد أبرزت هذه المقالة جانبًا من جهود أربعة من أعلام الإصلاح في إندونيسيا، اختلفت مناهجهم، وتكاملت أدوارهم. فأسهم الشيخ أحمد السوركتي في تصحيح المفاهيم المتعلقة بالغلو في الصالحين، وربط الناس بأصول الاعتقاد، بينما جعل الشيخ أحمد دحلان إصلاح العبادة والتربية مدخلًا لترسيخ العقيدة في المجتمع. ثم وسّع الأستاذ محمد ناصر دائرة الإصلاح، فجعل الدعوة إلى التوحيد مشروعًا مجتمعيًا يقوم على إعداد الدعاة وبناء المؤسسات، في حين أكد الأستاذ الدكتور حمكا أن تزكية النفس لا تنفصل عن صحة العقيدة، وأن الإحسان الحق لا يقوم إلا على إخلاص العبادة لله تعالى، واتّباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وتدل هذه النماذج على أن مواجهة الانحرافات العقدية لا تتحقق بمجرد نقدها أو التحذير منها، وإنما تحتاج إلى مشروع إصلاحي متوازن، يجمع بين العلم، والتربية، والدعوة، والعمل المؤسسي، ويخاطب الناس بالحكمة والرفق، مع المحافظة على مكانة العلماء، والتمييز بين فضلهم، وبين ما نُسب إليهم من ممارسات لم يدعوا إليها، ولم يعرفوها.

ومن هنا، فإن تجربة علماء إندونيسيا تقدم نموذجًا جديرًا بالتأمل في العالم الإسلامي؛ إذ تبين أن الإصلاح الحقيقي لا يبدأ بإثارة الخلافات، وإنما يبدأ ببناء الإنسان، وتصحيح المفاهيم، وإحياء العلم، وربط القلوب بخالقها، حتى يبقى التوحيد أساسًا لكل إصلاح، وتظل السنة الميزان الذي تُوزن به الأقوال والأعمال.